

تأثير النظريات التواصلية على التبادل اللساني العام و التربوي.

د. تسعديت لحول

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية

ملخص:

تعتبر اللغة ظاهرة تُكتسب بالتفاعل والتواصل في إطار محيط له خصوصياته. لكن دون أن نغفل دور السياق والموقف، لأنّ عملية التواصل لا تقتصر على العناصر اللغوية فحسب، فدلالة البنية اللغوية لا تظهر إلا من خلال الوضع الذي أنتجت فيه . تستهدف عملية التواصل بما تحويه من أوجه نشاط مختلفة، تحقيق العمومية والانتشار، وهذا لن يتم إلا إذا تحقّق حدّ أدنى من التداخل بين مجال معرفة المرسل والمستقبل، يؤدي إلى إيجاد الفهم المشترك الموحد لمعنى الرسالة الاتصالية بين المرسل والمستقبل، وإلى إحداث التواصل الحقيقي المبني على المعرفة المتبادلة المشتركة، بين طرفي عملية التواصل. ويعدّ التواصل من أهم المهارات الإنسانية التي يسعى المرء إلى التحكم بها، بحكم وجوده بين مجموعة من الأفراد، بغض النظر عن طبيعة العلاقة بينهم. ففي كل الأحوال يكون الفرد مضطرا إلى استخدام أساليبه الفطرية والمتعلّمة في إيصال ذاته وحاجاته إلى المحيطين به. وهنا يبدو لنا أن معظم المشكلات التي يعاني منها الشخص مع محيطه، قد تعكس ضعفاً في إيصال الفكرة واستقبال الرسالة، وهذا بدوره يدعم التفكير في إستراتيجية دعم التواصل وتقدمه سواء في ميدان التعليم أو في الحياة ككل.

الكلمات المفتاحية: النظريات التواصلية، اللسانيات، التواصل.

Abstract :

Language is a phenomenon that is acquired through interaction and communication in a context that has its own characteristics. But without losing sight of the role of context and position, because the process of communication is not limited to linguistic elements only, the significance of the linguistic structure appears only through the situation in which it was produced. The communication process aims at the various aspects of activity it contains, achieving generalization and spreading, and this will not take place unless there is a minimum level of overlap between the domain of the sender and the future of the knowledge, leading to finding a unified common understanding of the meaning of the communication message between the sender and the receiver, and to create true communication based on knowledge. Mutual mutual, between the two parties to the communication process. Communication is one of the most important

human skills one seeks to control, by virtue of its existence among a group of individuals, regardless of the nature of the relationship between them. In all cases, the individual is obliged to use his innate and educated methods to communicate himself and his needs to those around him. Here it seems to us that most of the problems that a person suffers with his environment may reflect a weakness in communicating the idea and receiving the message, which in turn supports thinking in the strategy of supporting and advancing communication, whether in the field of education or in life as a whole.

مقدمة:

يعد الفكر البنيوي الذي أسسه سوسور من التيارات التي أثرت في الكثير من اللسانيين، فساروا على منوالها، فنتج عن ذلك ظهور عدة حلقات و مدارس اتبعوا أفكار سوسور وفهمه منها حلقة براغ اللغوية المشهورة، وأصحابها هم أول من جعل الوظيفة الأساسية للغة هي التبليغ والتواصل، والبيان هو المقياس الوحيد في تفسير الظواهر اللغوية (حتى الزمانية منها). وقد تابعتها في ذلك المدرسة الوظيفية الفرنسية التي لا تزال يتزعمها أندري مارتيني، والمدرسة الدانماركية المشهورة التي تزعمها اللغوي لويس يلمسليف¹. فكل هذه المدارس تبنت أفكار سوسر وسارت على منوالها.

- بنية التواصل عند رومان جاكوبسون:

لقد اعتبر رومان جاكوبسون اللغة نسقاً وظيفياً مرتبطاً بالنشاط التواصلية للإنسان الهادف لتحقيق أغراض معينة والذي عرّفه قائلاً: «التواصل فعل كلامي يحرك رسالة ما وأربعة عناصر ترتبط بها وهي: المرسل، المستقبل، وموضوع الرسالة، ونظامها المستعمل كما أن العلاقة بين هذه العناصر تتغير»⁽²⁾، لذا حدّد وظائف اللغة في نموذج التواصلية:

¹ - عبد الرحمان حاج صالح: دراسات في اللسانيات العربية، الفنونولوجيا، مدخل إلى علم اللسان الحديث"، ج2، موفم للنشر، الجزائر 2007، ص 240.

²- R. Jakobson : Essai de linguistique générale, tom 1, les fonctions du langage, traduit et préface par Nicolas Runet, les éditions de minuit, 1963, chp : 5, p : 146.

2- 1 الوظيفة التعبيرية (الانفعالية): وهي التي يتم فيها التركيز على المرسل والتي تنزع إلى التعبير عن عواطف المرسل ومواقفه إزاء الموضوع الذي يعبر عنه، ويتجلى ذلك في طريقة النطق مثلاً أو في أدوات تعبيرية تفيد الانفعال كالتأوه، أو التعجب، أو صيحات الاستفسار...

والانفعالات في الحياة متعددة فقد تكون انفعالات خالصة، كما هو الأمر في الأمور المسلمة، وقد يكون انفعالاتاً مصحوباً بموقف مميّز يبيّن فيه صدقه من كذبه في وصف الواقع. فالوظيفة الانفعالية بشقيها» تهدف إلى أن تعبر بصفة مباشرة عن مواقف المتكلم تجاه ما يحدث عنه، وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو كاذب»⁽³⁾، سواء أكانت هذه الانفعالات منطوقة أم مكتوبة.

2- 2 الوظيفة المرجعية: وفيها تستعمل اللغة الكلمات لتتوب عن الأشياء حال غيابها، أي استعمال اللغة كما هي متواضع عليها، لأنها نظام من العلامات التي «تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه وخلافه»⁽⁴⁾. فاللغة علامات أو سمات معبرة عن أشياء، وهي نفس الفكرة التي أشار إليها بنفيسست قائلاً: «دور الدليل استعاضة وأخذ مكان شيء ما فيوحي لنا أنه ناب عنه»⁽⁵⁾، وذلك «باعتبار أن اللغة فيها تحيلنا على أشياء وموجودات نتحدث عنها وتقوم اللغة فيها بوظيفة الرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلغة»⁽⁶⁾ وهذا طبعاً إن كانت لكل الكلمات مرجعية واقعية، وهذا لا يصدق في جميع الحالات.

2- 3 الوظيفة الانتباهية: بما أن كل رسالة تحمل وظيفة تواصلية وجب التأكد من مرور الرسالة، وتحقيق هذه العملية (سلامة الاتصال)، وهذا ما ذهب إليه جاكوبسون حين قال: «هناك رسائل توظف في الجوهر لإقامة التواصل وتمديده وفهمه. وتوظف للتأكد فيما إذا كانت دورة الكلام تشتغل»⁽⁷⁾. ووظيفة اللغة في هذه الحالة تتمثل دلالتها في تأكيد واستمرار التواصل بين الباث والمستقبل، فالهدف إذاً تواصل محض.

2- 4 الوظيفة الإفهامية: تتميز اللغة التي تحمل طابعاً إفهامياً (بالإمتاع والإثارة والتأثير والإقناع) بما أنها موجهة للمرسل إليه، فهي تحمل أسلوباً إنشائياً يتمثل في الأمر والنداء إذ تجد «تعبيرها الأكثر خلوصاً في النداء والأمر اللذان ينحرفان من وجهة نظر تركيبية وصرفية وحتى فونولوجية في الغالب عن المقولات الاسمية والفعلية الأخرى»⁽⁸⁾. لأن غاية التواصل في هذه الحالة هي الحصول على رد فعل من المرسل إليه.

2- 5 وظيفة اللغة الواصفة (الميتالغوية): هي وظيفة شرح أكثر من مجرد تواصل عادي، لذا يركز فيها أكثر على الاستعمال السليم للسنن، لأننا بصدد الكلام عن الكلام. فإذا كانت الوظيفة المرجعية للغة هي الكلام عن الأشياء أو الموجودات أو الأحداث، فإن وظيفة ما وراء اللغة هي الكلام عن الكلام نفسه. وبمعنى آخر يجب أن يمتلك الإنسان جانب النحو ومعرفة بالرصيد اللغوي الذي يمثل المستوى المعجمي، إلى جانب "معاني النحو"⁽⁹⁾ كما يقول الجرجاني، ليتلاعب باللغة وسننها.

³ - رومان جاكوبسون: قضايا الشعرية. تح: محمد الوالي ومبارك رضوان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988 ، ص28.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، دار المعرفة، بيروت، ط2، ص 325.

⁵ - Emile Benveniste : problèmes de linguistique générale, édition galiner, 1995, p 48.

⁶ - رومان جاكوبسون: قضايا الشعرية، ص 78.

⁷ - المرجع نفسه، ص 30.

⁸ - المرجع نفسه، ص 29.

⁹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 316.

2- 6 الوظيفة الشعرية: هي الوظيفة التي يظهر من خلالها توظيف « الفن اللفظي في جميع مظاهره وامتداداته ».⁽¹⁰⁾ وأي عمل فني يعتبر رسالة لغوية تحمل « بنية خاصة وطرق تعبيرية خاصة لتأدية أغراض خاصة »⁽¹¹⁾. لذلك وجب تحليل سطح الرسالة وعمقها.

لقد ساهم جاكوبسون إلى حد كبير في توضيح وظائف اللغة مركزاً على عناصر التواصل حسب النموذج الثاني قائلاً: « إن هذه العناصر لا تتغير في التواصل الكلامي:

السياق *contexte*

المرسل *destinateur* .. الرسالة *message* .. المستقبل *destinataire*

الاتصال *contact*

النظام *code*...»⁽¹²⁾.

فقد تأثرت اللسانيات النظرية بنظريات التواصل، إذ يظهر ذلك جلياً عند رومان جاكوبسون حين حاول تطوير النموذج الوارد في كتاب سوسور عن التواصل "دروس في الألسنية العامة"، في مدار حديثه عن "دورة الخطاب" متأثراً في الوقت نفسه بنظرية التواصل الرياضية لشانون وويفر، وذلك بإدخال عناصر جديدة في عملية التواصل مثل «القناة» (التي تشكل الوسيلة الفيزيائية المساعدة على التعبير ونقل الرموز)، والسياق (المحيط الكامل لفعل التواصل)، والسياق الخطابي المتعلق بمظاهر ما قيل وما يقال»⁽¹³⁾.

وتتحقق عملية التواصل بين المرسل والمرسل إليه، بحسب جاكوبسون، بالاعتماد على الشفرة (النظام) التي يجب أن تكون موحدة، لتمكّن كلا من المرسل والمتلقي من الترميز وفك الرموز، مما يقود إلى حصر عملية التواصل في مجرد عملية نقل للمعلومات بين شخصين، في حين نجد شارل كولي يجعل من التواصل والإنسان شيئين لا ينفصلان، ففعل التواصل عنده هو «الميكانيزم الذي بواسطته توجه العلاقات الإنسانية وتتطور، إنه يتضمن رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها عبر الزمان. ويتضمن أيضاً الإشارات وتعابير الوجه، وهيئات الجسم، والحركات، ونبرة الصوت، والكلمات، والكتابات، والمطبوعات والقطارات، والتلغراف، وكل ما يشمله آخر ما تمّ من الاكتشافات في المكان والزمان»⁽¹⁴⁾. وهذا يعني إذاً أنّ عملية التواصل أوسع من مجرد تبليغ معلومات ومعارف للمتلقي يجهلها المتلقي، بل هي نوع من «العلاقات المشتركة بين الذات الملازمة للكلام لا تقتصر على التواصل المأخوذ في مفهومه الضيق؛ أي المقتصر على تبادل المعارف. بالعكس، فهناك نوع كبير من العلاقات الإنسانية المتبادلة لا تقدم لها اللغة الفرصة والوسيلة فحسب، لكن الإطار التأسيسي»⁽¹⁵⁾. فعملية التواصل العام و التربوي مبنية من خلال هذا المنظور على أمرين:

1 - تبادل المعارف (الإخبار والتفاهم).

2 - بناء العلاقات الإنسانية. على هذا، فإن:

¹⁰ - رومان جاكوبسون: قضايا الشعرية، ص 60.

¹¹ - عبد الرحمان حاج صالح: "التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية"، مجلة المبرز العدد 06، جويلية - ديسمبر 1995، الجزائر ص 12.

¹² - R. Jakobson, Essai de linguistique générale, P 214.

¹³ - R. Elwerd, Pour aborder la linguistique, tome1, 7^{ème} édition, E,S,F. Paris : 1993. P42.

¹⁴ - صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص 42.

¹⁵ - Oswald Ducrot, dire et ne pas dire, 3^{ème} édition, Hermann, Paris : 1991, p 4.

من هذا النص، يمكن استخلاص النقاط التالية:

- المرسل (Sender) هو الشخص الذي يبدأ الاتصال ويبدأ بمجموعة من الأفكار.
- المستقبل (Receiver) هو الشخص الذي يتلقى الرسالة ويبدأ بمجموعة من الأفكار.
- الوسيلة (Medium) هي الطريقة التي تنتقل بها الرسالة من المرسل إلى المستقبل.
- التشويش (Distortion) هو أي شيء يغير الرسالة أثناء انتقالها من المرسل إلى المستقبل.
- المتكلم (Speaker) هو الشخص الذي يتحدث.
- الكاتب (Writer) هو الشخص الذي يكتب.
- المستمع (Listener) هو الشخص الذي يسمع.
- القارئ (Reader) هو الشخص الذي يقرأ.
- بفهم (Understanding) هو الفهم الذي يكتسبه المرسل من خلال الاتصال.

3- بنية الفعل التواصلية عند إميل بنفنيست وأندري مارتيني:

يقول إميل بنفنيست: «الجملة تغادر مجال اللّغة كنظام من العلامات وتتدخل عالماً آخر وهو عالم اللّغة كأداة للتّواصل».⁽¹⁶⁾

وقد ساهمت هذه الأفكار المختلفة في بلورة مفهوم جديد، هو المنظور التواصلية الذي ينطلق في تعليم اللّغة من الأفعال الكلامية التي تحقق مختلف هذه الوظائف اللّغوية، أفعال ذات معايير لغوية في إطار عناصر ثقافية اجتماعية تواصلية نفسية... فقد مهدت أفكار بنفنيست بتمييزه بين اللّغة / الخطاب، في مقابل اللّغة / الكلام المجال للبحث في لسانيات اللفظ، وتجاوز مستوى البنية إلى مستوى الاستخدام بالتركيز على الفعل اللّغوي عند تبادل الأفعال الكلامية، إذ «توجد من جهة اللّغة كمجموعة من الأدلة الشكلية المنسقة تحررها إجراءات صارمة ومصنفة في طبقات منسقة في بنيات ونظام من جهة أخرى ظهور اللّغة في تواصل حي».⁽¹⁷⁾

إن وظيفة اللّغة تفاعلية تداولية تواصلية، ومن خلال هذا يركز بنفنيست على سمة الوظيفة مثلما فعل أندري مارتيني، حين ركز على اللّغة كأداة للتّواصل مؤكداً أن «الوظيفة الأساسية لهذه الأداة التي هي اللّغة هي عملية التّواصل».⁽¹⁸⁾ ووظيفة التواصل تؤديها اللّغة باعتبارها مؤسسة إنسانية، رغم اختلاف بنيتها من مجتمع إلى آخر. وهذا لا يعني أنه ينفي الوظائف الأخرى التي تؤديها اللّغة، بل يعتبرها ثانوية، أو هامشية. يقول مارتيني: «لا ننسى أنّ الكلام يمارس وظائف أخرى غير تلك التي تؤمن التفاهم المتبادل».⁽¹⁹⁾ واللّغة عنده ليست نسخاً للأشياء كما هي في الواقع، أو نقلاً آلياً، بل هي بنى متراسة ومتكاملة يتطلع المتكلم من خلالها إلى عالم الأشياء والأحاسيس. وهو ما ينتج الخبرة الإنسانية، فالوظيفة الجوهرية للّغة عند مارتيني هي التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي، هذه الوظيفة تؤديها اللّغة باعتبارها مؤسسة إنسانية رغم اختلاف بنيتها من مجتمع إلى آخر.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، يجب على عناصر اللّغة أن تكون مدروسة تبعاً لوظائفها في التواصل. فدراسة اللّغة هي - قبل كل شيء - البحث عن الوظائف التي تؤديها العناصر في التواصل، وكذلك الأصناف، والآليات التي تتدخل فيها. لهذا فإنّ علماء الأصوات قبل مارتيني أمثال تروباتسكوي، وجاكوبسون، وصفوا بدقة منهجاً سموه التّواصل. درسوا من خلاله وظائف الأصوات مركزين على الوحدات المميزة، التي تستخدم في تمييز الوحدات الحاملة للمعنى من بعضها. كما أن أيّ وحدة لسانية مهما كانت لا تتكون إلا بما يميزها من وحدة لسانية أخرى.

وعلى هذا، فإنّ الوجه الوظيفي لهذه الوحدات هو الذي تختلف به عن بعضها بعض. فمارتيني يشرح عملية التواصل في ضوء المعطيات الصوتية، والمعطيات النحوية المتعلقة بالبنية التركيبية، فيقول أندري مارتيني: «يهدف التحليل الصوتي إلى تحديد العناصر الصوتية للغة ما، وتصنيفها حسب الوظيفة التي تؤديها في اللغة المذكورة، وتكون هذه الأخيرة (الوظيفة) تمايزية أو تضادية عندما تساعد هذه العناصر على تحديد العلامة في نقطة ما من التكلم، في تعارضها مع العلامات الأخرى التي قد تظهر في نفس النقطة إذا ما اختلفت المرسل»⁽²⁰⁾. فالتحليل اللغوي عند مارتيني يبدأ من المستوى الصوتي "phonèmes"، وهو أصغر وحدة صوتية وشكلية لا تحمل معنى إلا في دراستها على مستوى الوحدات

¹⁶ - Emil Benveniste, Problème de linguistique générale, p 129 – 130.

¹⁷ - Idem, p 130

¹⁸ - أندري مارتيني: مبادئ ألسنية عامة. تر: ريمون رزق الله، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1990، ص 13.

¹⁹ - المرجع نفسه، ص 14.

²⁰ - أندري مارتيني، مبادئ ألسنية عامة، ص 71.

الدالة "monèmes"، وهي أصغر عنصر في الكلام حامل لمعنى. وسميت هذه المدرسة بالوظيفية لأن الباحث يسعى جاهداً إلى الكشف عن القطع الصوتية التي تشكل النص إذا أدت وظيفة⁽²¹⁾ في التبليغ أم لا. وهذا ما يؤكد اهتمام هذه المدرسة بالمعنى، إلا أنه لم يكن العنصر الأوحدها لم تذكر الوظائف الأخرى للغة، كالوظيفة الجمالية مثلاً. وتقوم هذه النظرية بدراسة وظائف الأصوات، وكيفية نطقها وتوزيعها داخل الكلام، وشروط مجاورتها لباقي الحروف، ودراسة النظام الفيزيائي الذي يخضع له كل صوت.

وبهذه الطريقة تكون الوظيفية قد درست النظام الصوتي، ودورها المهم يكمن في تحديد كيفية نطق الأصوات، وبيان الفرق بين نطق "p" و "b" في الفرنسية مثلاً، وبين (ض) و (ظ) في اللغة العربية. وهكذا أسست المدرسة لنفسها قاعدة انطلاق حول وظيفة أصغر عنصر في الكلام، ثم تنتقل إلى الوظيفة الصرفية، أو الوظيفة التي تأتي بها صيغ الكلمة، كاسم الفاعل واسم المفعول... من الوحدات الدالة بذاتها على معنى مستقل بذاته. أما النحو الوظيفي فيكمن في دراسة الوظيفة التركيبية للجملة في الكلام، إذ لكل نوع من التراكيب النحوية وظيفة خاصة به. كما اهتمت بدراسة الوظيفة الدلالية للبنية، و« بهذا التحليل الوظيفي يكون المنهج العام لهذه النظرية يتميز بدراسة نظام اللغة الكلي، بمستوياته المختلفة النحوية والصرفية والصوتية والدلالية، دراسة وظيفية محضة ».⁽²²⁾

فالمنهج الذي تقوم عليه المدرسة الوظيفية هو مفهوم الوظيفة على المستوى الصوتي والكلمة والجملة. وهي الأسس التي ينبنى عليها تعليم اللغة في هذه المدرسة، إذ « تحدد الوظيفية اللغة وأبنيتها كما هو معروف بوظيفتها ليس إلا. وهذه الوظيفة هي عندها التبليغ والبيان، فكل عنصر أو صفة لعنصر يساهم في تأدية هذه الوظيفة، فيجب أن يدخل في اعتبار الباحث اللغوي، ما لا دور له في ذلك، فليس ميدان البحث اللغوي لأنه لا دخل له في عملية التبليغ، وإن كان له دور آخر مهم ».⁽²³⁾ فالبنيات اللغوية تتحدد بالوظيفة التي تقوم بها في الإفادة أثناء عملية التبليغ والتخاطب.

* هو عالم لغوي فرنسي ولد بـ " سانت ألبان دي فيلار " عام 1908، وتوفي سنة 1999 بـ شانتني مالابري.

21 - خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات العامة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص 86.

22 - أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2007، ص 136.

23 - عبد الرحمان حاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، النحو العربي والبنوية واختلافهما النظري والمنهجي، ج2، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 31.

4- دلالة التواصل عند لويس يلمسليف:

يعدّ لويس يلمسليف من بين الذين أكدوا على اللغة ووظيفتها عبر جهوده المتواصلة، حين ركز على العلاقات المتبادلة للأصوات والحروف والمعاني اللغوية. فهذه العلاقات هي التي تصنع نظام اللغة الداخلي. لذلك فإن يلمسليف يرى أن نظريته امتداد طبيعي لنظرية سوسور معتبراً هو الآخر اللغة شكلاً وليست مادة، لأن المادة لا معنى لها في ذاتها وأن اللغة نظام من القيم. فوظيفة اللغة تكمن في علاقاتها اللغوية مستبدلاً ثنائية الدال/ المدلول بثنائية التعبير والمحتوى التي أخضعها لثنائية أخرى هي الشكل والمادة.

وما دامت اللغة هي شكل لا مادة، فإنّ أساسها هي شكل التعبير وشكل المحتوى اللذين يمثلان معاً الرمز اللغوي. يشير يلمسليف إلى أن مادة التعبير والمحتوى لا ترجعان إلى الدراسة اللغوية، فمادة التعبير هي موضوع الدراسة الصوتية، ومادة المحتوى هي موضوع الدراسة الدلالية، وهما مجالان مساعدان لعلم اللغة الذي هدفه الأساسي دراسة شكل التعبير والمحتوى معاً «إنّ التعبير والمحتوى مقولتان بدونهما لا يكون تفاهم متبادل. والمحتوى هو الواقع الحي نفسه الذي هو موضوع التواصل. أمّا التعبير فيشمل كل الوسائل التي يتم بها نقل كل المعلومات عن المحتوى وتحويلها إلى مصطلحات لغوية» (24).

فألسانيات الرياضية تعطي دوراً رئيسياً للشكل المصفى من كل واقع دلالي أو صوتي فإنّها ترتب الوظيفة في المستوى الثاني ضرورة، وكذلك دور اللغة في التواصل لأنّ هذا الدور مرتبط بالجواهر» (25). على هذا فإنّ الاهتمام يكون باللغة ودراساتها بطريقة تفضي إلى إرساء قواعد لها، لا تعتمد على أي علم آخر. وحاول إدوارد سابير أن يضع هذه القواعد حين ميّز بين التنظيم اللغوي المثالي (الأنموذج)، وبين التنظيم المادي أو الواقعي الكلامي، معتبراً التنظيم الحقيقي والأهم في حياة اللغة هو التنظيم الثاني، ويحتوي هذا الأنموذج على عدد من العناصر وعلاقاتها ووظيفتها. وهذه العناصر هي التي تكوّن اللغة وتميزها عن غيرها من اللغات، ويعبّر سابير على عدم إمكانية فصل اللغة عن ثقافة البيئة التي تتكلمها. كما لا يمكن فصلها عن مظاهر السلوك الإنساني، لذلك ركز على الجانب الإنساني للغة وبعدها الثقافي. فقد كان متأثراً بأستاذه فرانز بواز Franz Boas الذي كان يرى أنّ اللغة أهم مظهر من مظاهر الثقافة، لذلك وجب على الأنثروبولوجي فهمها ووصفها بدقة وبيان نظامها الذي يشكل وحدة متماسكة، وهناك فكرة ارتبطت بـ "سابير" و"بنجامين لي وورف"، مفادها أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان بناء لغوي، ووظيفة اللغة لا تقتصر على التواصل، إنما تتجاوز ذلك إلى تمثيل العالم، إذ أنها تؤثر في تفكير الإنسان، وإدراكه للواقع ورؤيته للأشياء.

إنّ اللغة تنظم أفكارنا إلى حدّ كبير، وتساهم في تكييف جوانب تصورنا للعالم. فالعلاقة إذّاً بين اللغة والثقافة علاقة متبادلة ومتفاعلة. فاللغة عامل أساسي في إضفاء الطابع الاجتماعي، ذلك أن العلاقات الاجتماعية لا تقوم ولا تدوم إلا عبر توسّل اللغة في عملية التواصل بجميع أشكاله داخل حجرة الدرس أو خارجها.

5- أبعاد التواصل عند التوزيعيين:

رغم مكانة بواز وسابير، إلا أن بلومفيلد - الذي تشبّع بمبادئ السلوكية، بآراء واطسون مؤسس المذهب السلوكي في علم النفس خاصة- هو الذي حدد مبادئ اللسانيات على أسس سلوكية، بتوضيحه لمعالم الطريقة التوزيعية، وبمحاولته تفسير الحدث الكلامي من منظور سلوكي بحث، في حدود المثير

24 - ميلاكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني. تر: سعد مصلوح ووفاء كامل، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، 1996، ص327.

25 - أوزفالد ديكر، جان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلم اللسان، ص43.

والاستجابة، رافضاً في تفسيره للظواهر الاعتماد على المنهج العقلي الذي كان شائعاً في عصره، مثل الروح والعقل والإرادة، أي لا يمكن ملاحظة أي شيء لتفسير النشاطات والقدرات اللغوية للكائنات البشرية. إن موقف بلومفيلد من اللغة اتخذه في وقت ظهرت فيه الفلسفة الوضعية التي تسلم بكل ما هو مرئي وتجريبي. فكان متحمساً لها، فطبقها في دراسة السلوك البشري بما في ذلك اللغة، لأنه سلوك ظاهر سببه مثير معين. ولتوضيح ذلك قدم بلومفيلد مثلاً لجاك وجيل، حيث افترض أن جيل وباك كانا ينتزهان، فشعرت جيل بالجوع، ثم رأت تفاحة، فأصدرت صوتاً فتسلق جاك الشجرة التي عليها التفاحة، وقطفها مقدماً إياها لجيل. وقد حل بلومفيلد هذه القصة طبقاً لنظريته الآلية لعملية الكلام كالآتي:

R.....>S.....>r.....>S.....

إن الشعور بالجوع ورؤية التفاحة يمثلان المثير، وهي في الآن ذاته أحداث عملية سابقة للحدث الكلامي. أما الاستجابة المباشرة للمثير فهي أن يتسلق جيل وتأتي بالتفاحة لنفسها (R)، لكنها بدلاً من ذلك تقوم باستجابة بديلة هي الحدث الكلامي على شكل أصوات (r)، وهذه الأصوات تقوم بدور المثير البديل بالنسبة لجاك (S)، وهي أحداث كلامية تابعة للحدث الكلامي، حيث تصرف جاك كما لو كان هو الجائع. وما يهتم به اللساني هو الدافع اللغوي والاستجابة له، وبهذا يكون بلومفيلد قد فسر لنا عملية التّواصل في إطار المثير والاستجابة بين المتكلم والمستمع، والاستجابة تكون تبعاً للحوافز المادية واللغوية التي تعمل على تحريك الطرف الآخر، لأنّ الأشخاص في أي مجتمع يتجاوبون بواسطة الأمواج الصوتية⁽²⁶⁾. وعليه، فإنّ بلومفيلد يرى أنّ السلوك الإنساني كله قابل للتفسير، لأنه متوقع انطلاقاً من الأوضاع التي يظهر فيها، وبشكل مستقل عن أي عامل داخلي (الحالة الذهنية). فالمثيرات الخارجية هي التي تدفع الشخص إلى التّواصل باللغة للتعبير عن الأفكار والمواقف، والمعتقدات.

ودراسة اللغة عند التوزيعيين تتم في مرحلتين: أولاً، قبل كل شيء، يتم جمع مجموع متنوع قدر الإمكان من العبارات والملفوظات التي قالها فعلاً مستعملو اللغة في زمن محدد، فهي تمثل المدونة، ثم يتم بعد ذلك، البحث عن الاضطرابات والتواترات التي تتمثل في السياق الخطي أو المحيط، والتي تظهر كلما توفرت شروط تواصلية معينة، قصد الوصول إلى تحليل البنية اللغوية، وإعطاء صورة واضحة عنها مع استبعاد كامل للمعنى.

وقد جاءت أعمال هاريس الذي حاول قدر الإمكان أن يطبق هذه الطريقة التوزيعية الصورية تمثيلاً واضحاً لهذه الأفكار. وقد حاول بعده لازويل lasswel تطبيق ثنائية المثير والاستجابة أثناء دراسته للوظيفة التأثيرية لخطاب التّواصل، حيث قدم نموذجاً تواصلياً أساسه الأسئلة التالية، مؤكداً فيه عنصر "التأثير"

» من يقول ؟

ماذا؟

لمن؟

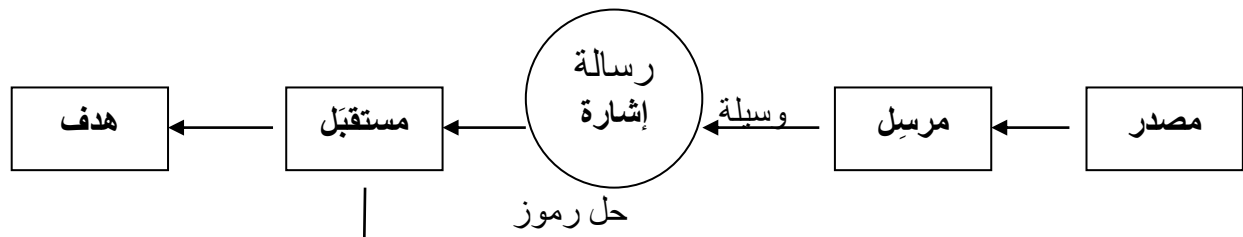
وبأية وسيلة

وبأي تأثير؟⁽²⁷⁾

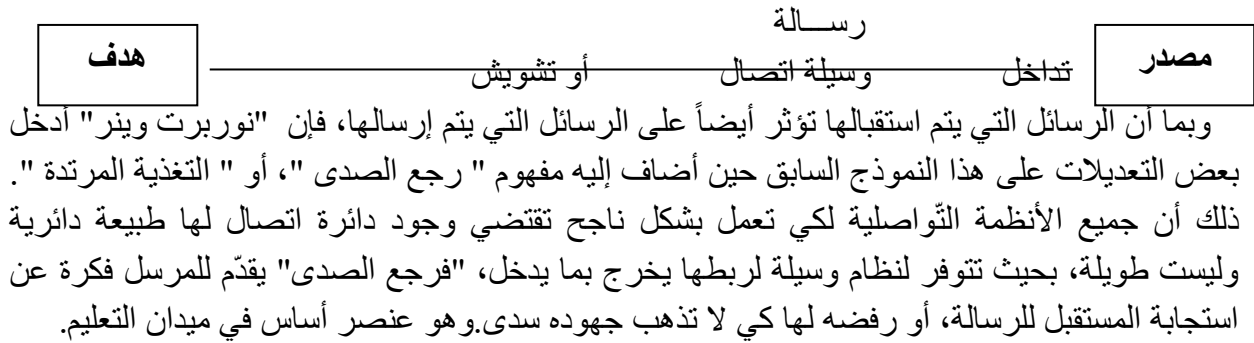
وجاء بعده كلود شانون ووفير بخطاطة أخرى لرصد الصوت الإنساني، وهي تتجسد في نموذجها الآتي⁽²⁸⁾:

²⁶ - Leonard Bloomfield :Le langage, trad : Française Jamick, Cagio , Ed Payot, 1970. p 29.

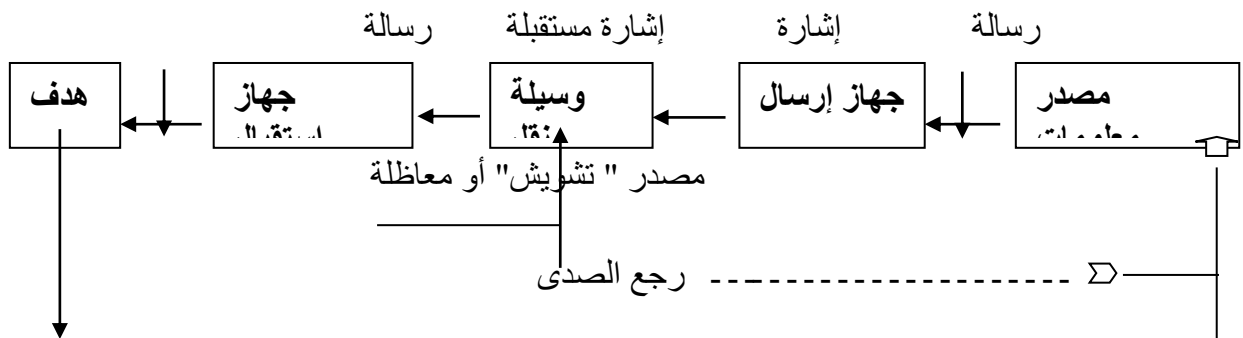
²⁷ - إبراهيم إمام، الإعلام والاتصال بالجمهير ، ص127.



ويتضمن هذا النموذج: المصدر - مصدر رمزية، ثم يبعث بها من خلال جهاز إرسال فيك شفرة الإشارات، ويحولها إلى رسالة نموذجها عنصر "التداخل" أو "التشوش". الخطأ الذي يسبب حدوث اختلافات بين العلامات أو الإشارات التي تدخل جهاز الإرسال والعلامات أو الإشارات التي تخرج من جهاز الاستقبال. ولذلك يذهب شانون إلى أنه يمكن دراسة هذا العنصر من الناحية الفنية من جهة، كما يمكن أن يدرس التداخل أيضاً من الناحية الدلالية من حيث مشكلات المعنى من جهة. ومن حيث التأثير وتأکید النتائج السلوكية من جهة ثالثة. ويمكن تصور عنصر رجع الصدى على النحو الآتي:



ويمكن تصور عنصر "رجع الصدى" على النحو الآتي في نموذج "وينر" (29):



"رجع الصدى" أساس في وسائل التحكم الذاتي وفي الاتصال. والسبيرنيطيقا من المفاهيم الأساسية لفهم عملية التواصل وهو مصطلح ظهر على يد "وينر"؛ في إطار نظرية التواصل الآلي والحيواني، بحكم

²⁸ - Dubois et coll : Dictionnaire de linguistique, ed : librairie Larousse, Paris, 1973,p98 .

²⁹ - إبراهيم إمام: الإعلام والاتصال بالجماهير، ص 133.

أنه من وجهة نظر الاتصال، فإنّ الإنسان لا يختلف كثيراً ولا قليلاً عن الآلة، ووجه الشبه هذا فيهما جعلت "وينر" يستخدم هذا المصطلح.

6- الكفاية اللغوية والتواصل عند نعوم تشومسكي:

سعى تشومسكي - من خلال نقده للنظرية السلوكية- إلى إقامة نظرية على أساس أن اللغة عمل عقلي يتميز به الإنسان عن الحيوان. فاللغة لم تعد مقصورة على وظيفة التوصيل، ولكنها أداة للفكر الحر والتعبير الذاتي. ورفض تشومسكي التصور الذي يركز على الجوانب الشكلية مع إبعاد المعنى لأنه تصور اعتبره مساساً بالكائن البشري الذي يختلف عن الحيوان بقدرته على التفكير والذكاء، وبقدرته على اللغة، وهي قدرة لا يمكن الوقوف عند جوانبها الشكلية فحسب.

رغم محدودية قواعد الجملة وألفاظها وأصواتها، فإنّ المتكلم بإمكانه أن ينجز جملاً لامتناهية، ويفهمها بالرغم من أنه لم يسمعها من قبل. ومن هنا تبدو طبيعة اللغة الخلاقة. لهذا كان السؤال الأول الذي حاول الإجابة عنه هو طبيعة اللغة نفسها، لذا قسم تحليل الجملة إلى البنية السطحية والبنية العميقة، وهذه البنية الثابتة تمثل التصورات الفكرية التي تتم في الذهن انطلاقاً من جملة من التغيرات وهي: «تعبّر عن المعنى في كل اللغات، فإنها تعكس أشكال الفكر الإنساني، وعلينا أن نعرف كيف تتحول من البنية إلى كلام على السطح» (30).

وقد ميّز تشومسكي بين الكفاية اللغوية لمتكلم اللغة المثالي بقواعد لغته التي تتيح له التواصل عن طريقها وبين الأداء الكلامي، أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية، بهدف التواصل في مواقف لغوية مختلفة. فاللغة عند تشومسكي هي تلك القدرة التي يمتلكها كل إنسان في المجتمع، هذه القدرة تمكنه من التعبير عما يريد في مناسبات ومواقف مختلفة باستعمال إما جمل يعرفها من قبل أو جمل لم يسبق له قط أن سمعها. هذه القدرة هي التي سماها الكفاية اللغوية، ويقابلها مصطلح الأداء الكلامي، وهو الأداء اللغوي الفعلي الذي يمثل ما ينطقه الإنسان فعلاً في مختلف المواقف التواصلية. فبالنسبة إلى تشومسكي هناك:

6-1- الكفاية اللغوية والأداء: أو بين ما يعرفه متكلم اللغة معرفة ضمنية، وهو ما يسميه بكفايته، وما يفعله بهذه المعرفة وهو ما يسميه أداءه أو المعرفة التي تكمن وراء مقدرة الفرد على استعمال لغته. فالكفاية هي قدرة المتكلم المستمع المثالي على أن يجمع بين الأصوات اللغوية، وبين المعاني في تناسق وثيق مع قواعد لغته. (31) في حين أن الأداء هو الكيفية الأدائية للكيفية اللغوية في تبليغ الأغراض المختلفة. فالكفاية معرفة ضمنية باللغة، والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة. الكفاية معرفة مكتسبة، والأداء فعل كلامي متحقق؛ يعني أن هذا الأداء هو طريق الوصول إلى الكفاية. فالكفاية لا تدرك إلا من أفعال الأداء اللغوي، ومن ثمّ عُدّت الكفاية بناءً افتراضياً مثالياً، في الوقت الذي يكون فيه الأداء ناتجاً لغوياً واقعياً. (32) فمعرفة المتكلم بلغته لا تظهر إلا من خلال تأديته أو تحقيقه لهذه المعرفة في الواقع الملموس عن طريق جانب الكلام.

6-2- البنية السطحية: وهي البنية الظاهرة عن تتابع الأصوات، أي جانب خارجي للغة، والبنية العميقة، أو القواعد التي أوجدت تتابع هذه الأصوات.

6-3- التحويلات: التي ربطها بإبداعية الفرد، كونه يثبت أن اللغة ليست بنيات شكلية، إنما هي معرفة ضمنية غير واعية بقواعد اللغة مما يسمح بتوليد عدد لا حصر له من الجمل وتحويلها لمعرفة المتكلم بلغته،

30 - عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص 124.

31 - محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005، ص 27.

32 - ميشال زكريا: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص 18.

وتتم هذه التحويلات النحوية في المستوى الذهني، بربط الجانب العميق بالجانب السطحي. وهي ليست نموذجاً لمعرفة كيف يقيم المتكلم اتصالاً لغوياً، حقيقياً مع الآخرين» يلائم فيما بين اللغة التي يعرفها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال»⁽³³⁾. فالكفاية اللسانية هي معرفة المتكلم المكتسبة بلغته، وهي صفة راسخة للمتكلم تحصل بتكرار الأفعال الكلامية وتحصل بالتعلم والممارسة.

إنّ الكفاية اللسانية مشتركة بين البشر، لكنهم مختلفون في كيفية استعمالها وتحقيقها، لأن أهم مقوماتها هي معرفة الإنسان بالقواعد النحوية والصرفية والصوتية التي تربط المفردات في إطار الجملة، إضافة إلى معرفته القواعد التحويلية. «قثمة مستويان لتمثيل بنية الجمل في النحو التحويلي: مستوى بنية العبارة phrase structure level، والمستوى التحويلي transformational level، وينشأ عن ذلك وجود نوعين من القواعد: قواعد العبارة phrase rules (أو قواعد مكونات البنية) structure rules وقواعد التحويل transformational rules. وعند وضع نحو ما للغة بعينها يكون على المرء أن يستعمل المستويين كليهما: مستوى وصف بنية العبارة، ومستوى وصف التحويل»⁽³⁴⁾.

وقد قام النحو التحويلي أيضاً على أساس الاعتقاد بأن على النحو إذا كان كفاء أن يزودنا بقاعدة تفسر لنا كيف تستعمل الجمل؟ وكيف تفهم؟»⁽³⁵⁾. مما يقودنا إلى القول بأن فهم الجملة والعلاقات القائمة بين عناصرها، لا بد من فحص الأطراف المشاركة في حدث التواصل، من متكلم ومستمع. يقول تشومسكي في كتابه المعنون "بالتحليل الشكلي للغات الطبيعية": «إن اللغة والتواصل يلعبان دوراً خاصاً وأساسياً في حياة البشرية»⁽³⁶⁾. فاللغة صوت ومعنى، والمتكلم حين ينتج متواليات لغته ينطلق من تمثيلين: تمثيل صوتي يعكس الكيفية التي تؤدي بها الجمل صوتياً، وتمثيل دلالي يعكس ما تفيد هذه الجمل من معنى.

ويرى تشومسكي أن للبشر آليات ذهنية تتيح لهم بناء تركيب لغوي حاملاً لمعنى معيّن. فكل متكلم يكون قادراً على إنتاج جمل تفهم في لغته، وأغلبها جمل جديدة لم يسبق له أن سمعها، أو تلفظ بها من قبل. فالبشر يتواصلون من خلال اللغة التي ينتجونها.

من هنا يمكن أن نعتبر لغة ما نسقاً من المفردات والقواعد التي يشترك فيها متكلمو تلك اللغة. فهناك إذاً تواضع بين متكلمي لغة ما بخصوص ما هو نحوي في لغتهم.

يمكن أن نقول إن عملية التواصل اللغوي والأشياء التي تحيط بهذه العملية، لها أهمية بالغة في تأطير سؤال: أين يوجد المعنى فالتواصل ينقلون معلومات إلى بعضهم من خلال التلفظ بأقوال معيّنة، وهذه الأقوال لا يمكن أن تعتبر معطيات صالحة يتواصل بها إلا إذا مرت من "امتحان التواصل" أي إلا إذا كان لها مفعول على مستوى الواقع التجريبي. فما ليس له معنى لا وجود له على مستوى التواصل.

لذا اقترح تشومسكي في كتابه "البنيات التركيبية" نموذجاً نحوياً يفترض أن ملكة النحو عند البشر مستمدة من النحو الذي يستبطنونه. واقترح أن تكون قوة توليد البنيات اللغوية عند البشر ناتجة عن مكوّن تركيبية يسمح لهم بإنتاج جمل نحوية في اللغة التي يتكلمون بها. ويعمل هذا المكوّن على توليد متواليات صحيحة نحوياً ويلغي غيرها. وبما أن المتكلم يكون قادراً على إنتاج جمل تفهم في لغته؛ أي يسند إليها تأويلًا دلاليًا. فإنّ التأويل الذي ينبغي أن يسند لهذه الجمل هو كما يقول هيرش (1967) Hirsch «المعنى

33 - محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص 45.

34 - ميلاكا إفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ص 382.

35 - المرجع نفسه، ص 381.

36 - Noam Chomsky, George A. Miller : L'analyse formelle des langues naturelles, trad français de pr. Richard/ N. Runet, ed Gautier ,Paris ,1968, p 1.

الذي يقصده المتكلم، وهذا المعنى هو المعنى الصحيح الذي ينبغي أن نسند إليه الجمل»⁽³⁷⁾. رغم أن كلامنا يجب أن يصدق على المعاني التي نتواصل بها.

وإذا كان تشومسكي يجعل هدفه وصف كفاءة المتكلم / السامع المثالي في إطار جماعة متجانسة، وذلك بالاعتماد على الأحكام القاعدية، فإن ويليام لابوف، يهتم باللغة كما تتكلم بها الجماعة اللسانية، لأنه يؤمن بالتغير اللغوي. بالتالي لا نستطيع أن نجعل تجانس البنى القاعدية مسلمة ينطلق منها، لأن هذا التغير يمس المتكلم الواحد في ذاته.

نستنتج من خلال ما سبق أن اللغة والتواصل يحتلان مكاناً أساسياً في حياة الفرد العامة وفي نظامه التعليمي وهذا ما يؤكد أغلبية الباحثين. فاللغة نشاط تفاعلي مرتبط بالتواصل ارتباطاً وثيقاً وعليه فإن:

- كل نشاط لغوي ينبنى على أساس وجود طرفين على الأقل.

- كما أن كل نشاط لغوي أساسه التبادل والتفاعل والمشاركة بين الأطراف.

لهذا كانت اللغة تحمل عدة وظائف بحسب ما أشار إليه اللسانيون، كما نستنتج أن هناك تأثيراً قوياً للنظريات التواصلية على جانب التبادل اللساني، إذ حاول اللسانيون تفسير عملية اللغة انطلاقاً من النماذج التواصلية المختلفة، لأن التكلم هو عملية نقل للمعرفة من شخص لآخر فوظيفة اللغة تفاعلية تداولية تواصلية في ميدان التعليم أو في الحياة ككل، ووظيفة التواصل تؤديها اللغة باعتبارها مؤسسة إنسانية لذلك وجب:

- دراسة عناصر اللغة انطلاقاً من وظائفها في الاتصال.

- الوجه الوظيفي للوحدات اللغوية هو الذي يجعلها تختلف عن بعضها البعض، وهذا ما يؤكد أندري مارتيني ولويس يلمسليف وادوارد سابير، في حين استبعد بلومفيلد المعنى من الشكل اللغوي ولذلك انتقده تشومسكي. وقد ميز بين قواعد اللغة التي تتيح للفرد التواصل بتمييزه بين ما هو راجع للملكة وبين ما هو راجع للتأدية اللغوية.

الاحالات

--أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2007،

- أندري مارتيني: مبادئ ألسنية عامة. تر: ريمون رزق الله، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1990، ص 13.

- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات العامة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000،

- رومان جاكوبسون: قضايا الشعرية. تح: محمد الوالي ومبارك رضوان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988،

- صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000-

صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000

: أسرار البلاغة، دار المعرفة، بيروت، ط2 - عبد القاهر الجرجاني

- عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1986

-، عبد الرحمان حاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، النحو العربي والبنوية واختلافهما النظري والمنهجي، ج2، موفم للنشر، الجزائر 2007 .

- عبد الرحمان حاج صالح: "التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية"، مجلة المبرز العدد 06، جويلية - ديسمبر 1995، الجزائر.

- عبد الرحمان حاج صالح: دراسات في اللسانيات العربية، الفنولوجيا، مدخل إلى علم اللسان الحديث، ج2، موفم للنشر، الجزائر 2007.

- عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1،

37 - عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص42.

- فرد يناندي سوسور: دروس في الألسنية العامة، تر: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985، 2000
- ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني. تر: سعد مصلوح ووفاء كامل، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، 1996
- محمد العيد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005، -
- ميشال زكريا: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986
- المراجع باللغة الأجنبية:
-

- 1-Dubois et coll : Dictionnaire de linguistique, ed : librairie Larousse, Paris, 1973,-
- 2- Emile Benveniste : problèmes de linguistique générale, édition galiner, 1995,
- 3- Leonard Bloomfield :Le langage, trad : Française Jamick, Cagio , Ed Payot, 1970.
- 4-Noam Chomsky, George A. Miller : L'analyse formelle des langues naturelles, trad français de pr. Richard/ N. Runet, ed Gautier ,Paris ,1968, - Noam Chomsky, George A. Miller : L'analyse formelle des langues naturelles, trad français de pr. Richard/ N. Runet, ed Gautier ,Paris ,1968, 5_ - Osweld Ducrot, dire et ne pas dire, 3^{ème} édition, Hermann, Paris : 1991,
- R. Elwerd, Pour aborder la linguistique, tome1, - : 7^{ème} édition, E,S,F. Paris
- 7-R. Jakobson : Essai de linguistique générale, tom 1, les fonctions du langage, traduit et préface par Nicolas Runet, les éditions de minuit, 1963, chp : 5,2